المدينة الصحراوية الجزائرية وتأثير التغيرات على الهوية والذاكرة الحضرية

رحاب مختار
جامعة المسيلة **(الجزائر)**

الملخص:

لقد عرفت المدينة الجزائرية تحولات متسارعة مست المظهر العمراني المادي، وأثرت عميقا في المجال الحضري للمدن حيث شهدت تحولات وتغيرات في محتواها الاجتماعي، حيث تفككت البنى العائلية التقليدية، وبروز ظاهرة التشظي الاجتماعي وتفككت الحومة كحيز كان يمتلك هوية مكانية واجتماعية واقتصادية ثابتة، ويؤدي وظائف مادية ومعنوية بالمدينة. كما تغيرت أسواق المدينة كمجال للنشاط الاقتصادي، في ظل انتشار ثقافة وسياسة البازارات الكبرى مما عطل العديد من الأنشطة التجارية الصغرى داخل قلب المدينة. إضافة إلى التوسع العمراني وظهور بنى حضرية جديدة تعاني العديد من المشكلات. في هذه المداخلة سنحاول التركيز على جملة التحولات التي عرفتها المدينة الجزائرية خصوصا في منطقة الصحراء بجنوبنا الجزائري، وكيف يمكننا تشخيص هذه المشكلات من منظور الأنثروبولوجيا الحضرية.

Résumé:

la Ville Algérienne a connu des transformations accélérées qui ont touché l'apparence urbaine physique et profondément influencé l'aspect civilisationnel des villes qui a vu des changements et des modifications dans le contenu social, car les structures familiales traditionnelles se désintègrent, et l'émergence du phénomène de la fragmentation sociale, et le manque du goût et la saveur de la vie urbaine, et le soi-disant Alhuma désintégré comme un espace qui avait une identité sociale et économique spatiale constante, et il remplissait des fonctions concrètes et morales dans la ville. les marchés de la ville ont également changé comme une zone d'activité économique, à la lumière de la propagation de la culture et de la politique des grands bazars, perturbant de nombreuses activités de micro-entreprises dans le cœur de la ville. en plus le phénomène des cabanes qui est devenu plus répandu avec les problèmes qui l'accompagnent et qui déplacent vers le cœur de la ville et de la zone urbaine avec des réactions mitigées, ainsi que l'expansion de l'urbanisation et l'émergence de nouvelles structures urbaines souffrant de nombreux problèmes.

Dans cet article, nous allons essayer de mettre l'accent sur les transformations qui ont touché la ville en particulier dans le désert sud algérien, et comment nous pouvons diagnostiquer ces problèmes du point de vue de l'anthropologie urbaine.

مقدمة:

لقد شهدت المدينة في الجزائر على اتساع وتنوع جغرافية البلاد تغيرات في المشهد العمراني، وتحولات في المجال الحضري، حيث أصبح الجو السائد فيها، وطبيعة التفاعلات اليومية في مجال المدينة يؤشران بوضوح إلى عنف التغير والتبدل الحاصل، وما نتج عنه من عوائق ومشكلات عديدة أثرت على الإنسان وشكلت التحدي أمام سياسات التخطيط والتهيئة الحضرية.

إن مشكلات المدينة في الجزائر خصوصا في العقدين الأخيرين من القرن الماضي ومطلع القرن الحالي إن كان يشكل وضعا متأزما ملحوظا، فإنها من جهة أخرى تؤشر على تحولات عميقة مست المجتمع الجزائري في زمن الحداثة والعولمة، ولعل هذا الأمر يمثل قاسما مشتركا لبلدان المجال الثقافي المشترك من تيطوان إلى بغداد.

و تسهم الأنتروبولوجيا الحضرية بنصيب وافر في تطبيق المناهج الاثنوغرافية في دراسة البيئة الحضرية، وذلك من خلال التركيز على الوصف والتحليل والتفسير للخصائص والسمات الخاصة بالمجتمع الحضري المحلي، وعليه فقد وصل الأنتروبولوجيون إلى درجة عالية من الكفاءة في استخدام تلك المناهج مستعينين في ذلك أيضا بالبيانات والطرق الإحصائية والكمية والانتفاع بها في مجالات الدراسة والتطبيق.

وفي ضوء ذلك يستطيع الأنتروبولوجيون الحضريون أن يقبلوا ويقدموا أنماطا بنائية للتحليل موجهة في الأساس نحو البناء الحضري الكلي، وان كانت في أساسها تهتم بمجتمعات أو مناطق حضرية بعينها، وقد وجدت مداخل متعددة للتحليل والتفسير فيما يخص الحياة الاجتماعية بأبنيتها وتنظيماتها المختلفة وتفاعلاتها داخل المدينة، وايكولوجية المدينة، إضافة إلى التركيز على دراسة الحياة الثقافية للمدينة وما تشتمله من أنساق متباينة ، والسعي لتحليل وتفسير والحياة الحضرية باعتبارها نسقا من القيم والتوجهات السلوكية، التي تطرأ على الإنسان الحضري في ضوء أنساق التنشئة والتربية والتثقف.

المدينة والتحولات: عرض للمفاهيم والتعريفات

المدينة: لقد كان الحديث عن المدينة ضاربا في الزمن الماضي منذ زمن الحضارات القديمة، حيث نجدها متضمنة في التراث الاجتماعي للفلاسفة والمفكرين من زمن الحضارة اليونانية حتى عصر الثورة الصناعية، فنظر الفلاسفة ومن بينهم أفلاطون إلى أن نشأة المدينة سببها الرئيس هو عجز الفرد عن سد احتياجاته بنفسه، ومن ثمة صار اجتماع شركاء متعاونون في مكان واحد ضرورة، ومن خلاله يشكلون مجتمعا يسمى " Polis" أي "مدينة".

وظل تحديد مفهوم المدينة في تطور وتحول إلى أن صيغت لها تعريفات معاصرة **لا** تقتصر على النظر للمدينة كبناء مادي عمراني، أو مجال حضري، وإنما صار ينظر للمدينة على أنها وحدة تتداخل فيها أبعاد أساسية ثلاثة، ويستمد كل مكون من هذه المكونات الثلاثة دلالاته التفسيرية في اتحاده وارتباطه مع المكونين الآخرين،: البعد المكاني، البعد الأيكولوجي، والبعد السوسيولوجي، وهذا الذي يصوب النظرة الكلاسيكية تجاه المدينة التي ترى هذه الأخيرة على أنها بناء ماديا ومعماريا فقط، بل المدينة تمثل إطارا بشريا وماديا وعمرانيا وإطارا تنظيميا واجتماعيا، ويتشكل من خلال التساند بين هذه الأطر نسيج حضري يساهم ويؤثر في تشكل نوعية الحياة بالمدينة.[1]

التحولات : إن الاجتماع منذ بداية نشوئه اهتم بدراسة ظاهرة التغير لدى الإنسان، ومازال منكبا على دراستها، ولما كان هذا العلم الفتي متضمنا مدارس واتجاهات متباينة في دراسته للمجتمع وما يدور فيه من تحولات وتغيرات وتطورات، بدء بالمجتمع الإنساني وانتهاء بسلوك الفرد، فانه قام بدراستها من عدة زوايا لم تكن في وقت واحد بل حسب تطوره كعلم وطبقا للمؤثرات التي أثرت فيه مثل العلوم الصرفة في بداية نشوئه، والعقائد السياسية التي أفرزتها الثورات الأوربية والأمريكية والثورة الصناعية وتطور الفكر السوسيولوجي وآلياته المنهجية، برزت مشكلات حضرية تفاقمت في المجتمعات المتمدنة بعدها تأثر بالتطورات الثقافية وآخرها تأثره بثورة الاتصالات الحديثة والعولمة التي بلورت تغيرات ثقافية وعلائقية جديدة بين الأفراد بغض النظر عن مواقعهم الجغرافية أو أعرافهم العنصرية أو ثقافاتهم الفرعية أو دياناتهم[2].

أما بالنسبة لعلم الإنسان أو الأنتروبولوجيا، فهذا العلم ينظر إلى المجتمع على أنه في تغير دائم، لذا فانه يدرس المجتمع في مرحلة معينة من الزمن، والتغيير فيه موجود دائما، فأما أن يكون تغييرا بطيئا لا يعيه الملاحظ العادي، أو سريعا جدا بحيث يصبح من الصعب التحدث عن تنظيمات ثابتة[3].

---

[1] أحمد النكلاوي، **النظرية في تخطيط المدن** في: دراسات مصرية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، جامعة القاهرة ، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، 2002، ص126.

[2] معن خليل عمر، **التغير الاجتماعي** دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2004، ص36.

[3] معن خليل عمر، **نفس المرجع**، ص40.

تخطيط المدينة وخصائصها في المغرب الأوسط منذ الفتح الإسلامي:

لقد اختلفت الدوافع والأسباب التي من أجلها أنشئت المدن الإسلامية في بلاد المغرب العربي، فمنها ما أنشيء بدافع أن يكون عواصم سياسية، وارتبط إنشاء مدن العواصم باعتبارات سياسية مباشرة تحقق هدف الاستقرار في فترة التأسيس، وتكون منطلقا لتحقيق الأهداف السياسية التي ترمي إليها الدولة، ومنها ما بدأ على هيئة معسكرات حربية، ثم تطور إلى هيئة مدينة من هذه المدن، ومنها ما نشأ ونما مرتبطا بعوامل دينية، كالمدن التي أسستها الأسر الشريفة، والأسر المرابطية.

ومن بين الشروط الرئيسية لإنشاء المدن في الحضارة العربية الإسلامية كما دونها مجموعة من المعماريين والمؤرخين نذكر منها: أن يسوق إليها الماء العذب، أن تنجز شوارعها بقدر مقاسي مضبوط حتى تتناسب ولا تضيق، أن يقام فيها جامع للصلاة يتوسطها ليكون على مسافة متقاربة واحدة من ساكنيها، أن يقدر أسواقها بكفايتها لينال سكانها حوائجهم من قرب، أن يميز قبائل ساكنيها بأن لا يجمع أضدادا متباينة مختلفة، أن يحوطها بسور، أن ينقل إليها من الصنائع بقدر الحاجة لسكانها، وان أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها وأن يجعل خواصه كنفا له في سائر جهاته.[4]

وإذا ما أمعنا النظر في تخطيط المدينة الإسلامية في بلاد المغرب، فيمكننا القول أن المدينة الإسلامية ليست مجموعة من المباني والمنشآت والطرق، أو مكانا لتجمع البشر، ولكنها تعبر عن التفاعل الحقيقي بين الإنسان والمكان الذي يقيم فيه، ويعكس أطرا فكرية معينة تعد من خصائص الزمن الذي قامت فيه، ولذا استمدت المدينة الإسلامية ماهيتها وشخصيتها من تطبيق المفهومات الإسلامية على الواقع البيئي، سواء في ذلك مواضع المدن نفسها التي كانت موجودة أصلا، أو تلك الأمصار المفتوحة التي عربت، أو المدن الجديدة التي أنشأها المسلمون لتكون قواعد لهم في البلاد التي فتحوها، فالإسلام في جوهره دينا حضريا، لا يتنافى والحياة الحضرية المتطورة والمتغيرة، فالفقه الإسلامي كان دوما مواكبا وموجدا للحلول ومشكلات حياة الإنسان في الحواضر، أو بمعنى آخر أن الإسلام دين مدن، وشهدت الحضارة الإسلامية على مدارها الزمني إنشاء وقيام مدن وحواضر شكلت أمهات المدن وأدت دورا مهما خلال التاريخ الإسلامي كله، وعكست مظاهر الحضارة الإسلامية المميزة[5].

لقد انعكست منطلقات الدين الإسلامي سيما ما تعلق منها بالكليات الخمس كحفظ الدين والنفس والمال والعرض في منجزات العمارة وتخطيط المدن، وإقامة المراكز الحضرية، حيث تم تقسيم أجزاء المدينة إلى ما هو واجب وضروري كالمساجد، ومراكز العلم والمعرفة ودور الصحة أو كما سمي بالبيمارستانات، وكذا حصون وقلاع الحراسة برا وبحرا، وكذا الجسور وقنوات إيصال المياه، ومن المباني ما كان مندوبا كالأسواق مثلا، ومنها ما كان مباحا مسموحا بالمساكن والمتاجر، ومنها ما كان ممنوعا محرما كدور البغاء و الحانات.

و كانت المصادر التراثية حول العمارة الإسلامية وجغرافية المدن قد بينت أن خطة المدينة الإسلامية تتكون من خمسة عناصر رئيسة وهي: المسجد الجامع، مقر ولي الأمر والقاضي، السوق، الأحياء السكنية، الأسوار والبوابات. هذا بالإضافة إلى التوابع الأخرى التي سجلت حضورا قويا وبصور إبداعية رائعة كالساحات والبساتين والميادين.

وجسدت سياسة عمرانية لتنظيم العلاقة بين التكوينات المعمارية بما يحقق الفائدة، ويمنع الضرر بصوره المختلفة، ووجهت المباني في المدينة توجيها خاصا يتفق مع أحكام الدين الإسلامي وقيمه، ومن ثم تميزت التكوينات المعمارية للمدينة الإسلامية ومنها الأسوار، والمسجد الجامع، وقصر السلطان، والدواوين الملحقة به، والأسواق، والمراكز الثقافية، ومراكز الخدمات الصحية، والمساكن وغيرها، بميزات خاصة تكررت ملامحها في المدن الإسلامية على اختلاف مناطقها وعصورها، الأمر الذي نتج عنه تشابه معماري رغم بعد الجغرافيا بين هذه الحواضر وساكنيها[6].

---

[4] ابن أبي الربيع، **سلوك الممالك في تدبير الممالك**، تحقيق ناجي التكريتي، دار الأندلس، 1981، ص192.

[5] السيد خالد المطري، **دراسات في مدن العالم الإسلامي**، معهد البحوث والدراسات العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1989، ص 61.

[6] محمد عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، سلسلة عالم المعرفة، ع 128، ذو الحجة 1408، أغسطس آب، الكويت، 1988، ص308.

العوامل الاجتماعية والاقتصادية والتحول في بنية المدينة الجزائرية ووظائفها:

إن التحول الديموغرافي والضغط العددي المتزايد وإعادة الهيكلة الاقتصادية وانهيار البنى الاجتماعية القديمة وتحديث ظروف تنقل البشر والمنتوجات والمعلومات وأنماط الاستهلاك الجديدة والتوريد المخصص إلى الدعم الغذائي، كل هذه العناصر من بين أخرى رافقت السكان خلال طور تحضر استثنائي ضاغط وغير متحكم فيه. لقد تمت باستمرار تغذية الحركية الديموغرافية للسكان الحضر باستقرار عائلات ريفية بالمدينة وهي عائلات وارثة لسلوك غير ملتوسي ولممارسات اجتماعية– مجالية غريبة عن الوسط الحضري"البرانية" فهكذا تمثل الهجرات أحد العوامل المحددة لتغيرات التشكيلات القومية[7].

تدهور المراكز التقليدية بالمدينة:

لقد شهدت المراكز التقليدية للمدينة القديمة تدهورا نتيجة التحولات التي تعرفها المدينة عموما ببلاد المغرب العربي، وحسب بعض الدارسين المختصين يمكننا تمييز ست وضعيات هي على التوالي: التجديد بواسطة التعويض الكامل الذي يشمل أفضل المناطق إيصالا والطرفية غالبا ثم التحوير الشامل، فتغيير المظهر باستعمال مواد عصرية لكن بدون أن يغير الحجم، والتعهد والإصلاح باستعمال مواد تقليدية، ثم القدم المميز لمنازل مهملة ومتداعية وأخيرا الخراب[8].

حيث يرى BOUSQUET أن المدينة المغاربية التقليدية تمثل صرح طريف قد يسهم فيه تنظيم مفكك ومقسم للمجال في بلورة نهائية لكيان محتمل أي لوحدة صيغت بفضل ربط عناصرها ببعضها البعض، فقد شيدت الحضارة في إطار بنيوي وهيمنت على تجميع هذه الأجزاء سلطة تولت المدينة، وقد فقدت هذه البنية ذات التماسك الداخلي المتين وظيفتها وجاذبيتها منذ عقود عديدة[9].

لقد أصبحت أغلب المدن التقليدية الأصيلة محاطة بأحزمة من المعمار الحديث النابع من تصميم وهندسة معمارية غير مستنبطة ومتناغمة مع المنظومة الثقافية للمجتمع المحلي، فهو معمار منظم ومفكك في الوقت ذاته، يؤشر على مدى تأثر المصمم بأفكار المدرسة المعمارية الغربية، كما يدين أغلبهم لميثاق أثينا عام 1934، وهذا ما يبرز تحميل البيئة المحلية مرغمة بأفكار ومعمار لا يناسبها، وهنا نجد ممارسة نوع من العنف والاغتصاب للخصوصية الثقافية المحلية.

ذلك أنه بعد موجة حركات التحرر في فترة الأربعينيات من القرن الماضي وحصول العديد من البلدان العربية على استقلالها، سرعان ما شهدت بعض المدن العربية نهضة شملت الجوانب العمرانية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية، وفي خضم عملية النهوض والتطور برزت إلى مشهد ونطاق الحياة اليومية بعض العادات ونمت قيم جديدة، أثرت سلبا على عملية اندماج الإنسان الجزائري داخل المدينة خصوصا تلك الفئات المهاجرة من الريف باتجاه المدينة، مما يزيد من غربة الانتماء للمجال الحضري، ذلك أن مدننا المعاصرة تبدو:" مجرد كتلة من البشر والأشياء قلما يتقابلون أو ينظرون إلى بعضهم إلا لكي يرفضوا أو يتجاهلوا بعضهم ، ذلك أن ضياع الذات هو شرط للانتماء إلى قوم يجعل من إلغاء مادة التاريخ"[10].

تحولات وغياب أعضاء جسم المدينة

الحي أو "الحومة" ذلك المجال شبه العمومي الذي يعبره مسلك أو مسالك كبرى، يعد منطقة انتقالية بين المستويات الخاصة السابقة التي يجمعها ومحاور التعامل في الأسواق ومناطق الإنتاج الحرفي والصناعي، والجامع الكبير، وتتمتع الحومة بكل الوظائف وكل رموز التحضيرية كوظائف الإقامة والتعامل التي تؤديها الأنهج الرابطة بين الأزقة وكوظائف الاتجار" الفرن العادي وحوانيت التغذية العامة والمطحنة والمجزرة" وتوفير الخدمات كالمدرسة القرآنية" الكتاب" والوراقة والمدرسة الابتدائية ومحل

---

[7] روبار إسكاليي، **السكان والتحضر**، ضمن كتاب: **المغرب العربي الإنسان والمجال**، إشراف جان فرانسوا تراون، ترجمة: علي التومي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، ط1997،1 ص219.

[8] جان ماري ميوساك، **مدن وحضر**، ضمن كتاب: **المغرب العربي الإنسان والمجال**، إشراف جان فرانسوا تراون، ترجمة: علي التومي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، ط1997،1 ، ص450.

[9] BOUSQUET C. **Mutations urbaines en Algérie; le cas de Béni Ysguen au M zab**;T3.Tour ; p350.

[10] برهان غليون، **التغيير المكاني والاجتماعي**، ترجمة محمد علي مقلد، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 39، حزيران 1986.

التمريض والوكالة" النزل"، كما تؤدي الحومة دور المحول الاجتماعي" الزاوية وأماكن التعبد" المسجد" والمسجد الجامع والحمام والحلاق وخلية الحزب والمقهى" فهكذا تكون الحومة من خلال مناخها مجالا معيشا[11].

تحولات علاقات الجيرة:

حظي موضوع علاقات الجوار بأهمية خاصة من جانب علماء الأنتروبولوجيا الحضرية الذين ركزوا على دراسة الوحدات الاجتماعية الصغرى داخل النطاق الحضري، وأهم ما ميز دراساتهم حول الجيرة السكنية في مختلف البيئات الحضرية هو الانخفاض في مستوى المعيشة والدخول الاقتصادية، وتختلف هذه من حيث الاهتمامات البحثية فبعض الدراسات تناولت الجيرة السكنية كوحدة إثنوغرافية يدرس الباحث من خلالها بعض المشكلات التي ترتبط ببعض الموضوعات مثل الجماعات الأولية، الجماعات العرقية، الطبقة، بينما اهتمت بعض الدراسات الأخرى بالجيرة السكنية ذاتها[12].

ومن الدراسات التي أجريت حول الجيرة السكنية ومدى تأثرها بعلاقات الروابط الإثنية، والعمل والثقافة الفرعية الأنتروبولوجي **H/Gans** عندما درس الطبقة الايطالية العاملة في إحدى المجاورات السكنية في مدينة بوستن حيث توصل إلى الإطار العام الذي يحكم علاقات المهاجرين إلى المناطق الحضرية الفقيرة مكون من الخصائص التي تميز الحياة في القرية كالعلاقات الأولية، النقص في الخلوة الاجتماعية، الرغبة في الاندماج الاجتماعي، الميل نحو تمجيد الثقافة الفرعية والبنية القبلية التقليدية[13].

كما توصلت بعض الأبحاث والدراسات الأنتروبولوجية إلى أن علاقات الأشخاص في المناطق العشوائية تتسم بضعف التنظيمات والعلاقات الرسمية، في حين أن الضبط الاجتماعي غير الرسمي يقوم أيضا بدور ضئيل.

كما أن شبكة العلاقات الاجتماعية القائمة على الانتماء القرابي والصداقات والوحدة الإثنية أو العرقية ربما يكون لها دور في الأساس الأقوى لمسألة علاقات الجوار في الإقامة الحضرية.

تسهم الأنتروبولوجيا الحضرية بنصيب وافر في تطبيق المناهج الاثنوغرافية في دراسة البيئة الحضرية، وذلك من خلال التركيز على الوصف والتحليل والتفسير للخصائص والسمات الخاصة بالمجتمع الحضري المحلي، وعليه فقد وصل الأنتروبولوجيين إلى درجة عالية من الكفاءة في استخدام تلك المناهج مستعينين في ذلك أيضا بالبيانات والطرق الإحصائية والكمية والانتفاع بها في مجالات الدراسة والتطبيق.

وفي ضوء ذلك يستطيع الأنتروبولوجيون الحضريون أن يقبلوا ويقدموا أنماطا بنائية للتحليل موجهة في الأساس نحو البناء الحضري الكلي، وان كانت في أساسها تهتم بمجتمعات أو مناطق حضرية بعينها، ومن ثم دراسة وإيجاد العلاقات المتبادلة التي تربط بين المجتمع الحضري الكبير من جهة، والمجتمعات الحضرية المحلية من جهة أخرى[14].

ومن الدراسات الرائدة في مجال دراسة المدينة وتفسير وتحليل الحياة الحضرية إسهامات لويس ويرث **Wirth** والتي تبلورت في نظريته في أن المجتمع الحضري يتميز بالحجم، والكثافة، واللاتجانس، وتلك محكات أو معايير أساسية لفهم البنية الحضرية والأنماط السلوكية.

وفي ضوء تشخيص مشكلات المدينة المعاصرة فيرى بعض الباحثين أن هناك مشكلات نازلة وطارئة على المدينة في العالم العربي منها ما سمي بالحصار المديني الجديد وهو نوع آخر من تضييق المساحة الفيزيقية والنفسية داخل المدينة، انه عصر جديد سوف يؤدي إلى انطواء المدينة وتقوقعها ثقافيا واجتماعيا، وهذا الحصار الذي سيزيد من معاناة المدن الكبيرة على وجه الخصوص، وهو ما يدفع من جانب ابستيمولوجي للبحث عن تعريفات جديدة للمدينة غير تلك المألوفة التعامل[15].

---

[11] جان ماري ميوساك، **مرجع سابق**، ص449.

[12] محمد عباس إبراهيم، **التنمية والعشوائيات الحضرية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2007، ص213.

[13] محمد عباس إبراهيم، **مرجع سابق**، ص214.

[14] محمد عباس إبراهيم، **مرجع سابق** ص184.

[15] مشاري عبد الله النعيم، **الهوية في وسط متحول: تجربة التغير في البيئة السكنية السعودية**، ندوة الإبداع والتميز في النهضة العمرانية بالمملكة خلال مائة عام، 2004، ص2

كما يؤكد روبرت ردفيلد على أن اللاتجانس وتعدد قنوات الاتصال هما الأساس المميز في فهم المدينة والحياة الحضرية، ومن جانبه خلص ويرث إلى أن الحضرية كأسلوب في الحياة تتميز بالنزعة المادية والعلمانية، وعدم وضوح المعايير الأخلاقية، إلى جانب ظهور الجماعات الثانوية، وتفتت الأدوار تحت مظلة التخصص وتقسيم العمل والأداء، لكنه إلى جانب ذلك رأى أن الحياة في المدينة وما بها من علاقات اجتماعية متبادلة في إطار المصلحة والمنفعة تتميز بالسيولة والانسيابية والدقة، ويرى أن ذلك كله من سمات المجتمع الحضري[16].

وقد وجدت مداخل متعددة للتحليل والتفسير فيما يخص الحياة الاجتماعية بأبنيتها وتنظيماتها المختلفة وتفاعلاتها داخل المدينة، وايكولوجية المدينة، إضافة إلى التركيز على دراسة الحياة الثقافية للمدينة وما تشتمله من أنساق متباينة ، والسعي لتحليل وتفسير والحياة الحضرية باعتبارها نسقا من القيم والتوجهات السلوكية، التي تطرأ على الإنسان الحضري في ضوء أنساق التنشئة والتربية والتثقف.

ويرى العديد من الباحثين أن من نتائج التحولات الحضرية المتسارعة هو بروز إفرازاتها في أشكال مختلفة لعل من أبرزها تأثر نفسية الفرد داخل الوسط الحضري وتعطل كفاءته نتيجة الشعور الدائم والمستمر بالتعب والإرهاق بسبب الازدحام والضغط الايكولوجي داخل المدينة، وكذا الشعور بالضيق والقلق والاختناق جراء الانتشار الواسع للجداريات والأسوار الإسمنتية التي ابتلعت كل مجال فسيح داخل المدينة، إضافة إلى كثرة الاغتراب التي أفضت إليها التحولات العالمية التي تطرأ على نسيج قيم الحياة الحضرية، ومن ثم تفضي إلى انسحاب فئات من نمط الحياة القائم وقيمه، ويشكلون لأنفسهم ترابطات نسقية خاصة، يعيشون فيها بعيدا عن متطلبات النسق الفكري والثقافي الجديد للحياة بالمدينة، وهذا ما يزيد من حدة الاغتراب وعدم الشعور بالانتماء[17].

ملامح ومؤشرات التحول العمراني في الجزائر وإشكالية فقدان الهوية:

إن المتطلع إلى التطورات والتغيرات المتلاحقة عبر العصور ابتداء من فجر التاريخ كان كل عصر يأخذنا قدما على نحو أكثر سرعة من العصر الذي سبقه. فالعصر الحجري ظل قائما لملايين السنين، إلا أن عصور المعادن التي تلته قد دامت لفترة لا تزيد عن خمسة آلاف سنة. وقد قامت الثورة الصناعية بين أوائل القرن الثامن عشر وأواخر القرن التاسع عشر، أي أنها استغرقت 200 عام على وجه التقريب ، واحتل عصر الكهرباء 40 عاما بداية من أوائل القرن العشرين حتى الحرب العالمية الثانية ، أما العصر الالكتروني (عصر الكمبيوتر) فلم يدم سوى 25 عاما بالكاد ، في حين بلغ عصر المعلومات 20 عاما من عمره مع نهاية التسعينات.

ففي مطلع الألفية الثالثة تغيرت ملامح المدينة العربية، ووجدت نفسها في مواجهة تحديات كبيرة تتمثل في نقص معرفي متراكم، ظهرت ملامحه بشكل حاد مع انتشار تقنيات الاتصالات والمعلومات الحديثة، إن المدن في الوقت الحالي تشهد تحولات كبيرة من حيث الشكل الفيزيقي والتوسع العمراني والامتداد المكاني، فإذا كانت المدينة عقب ظهور الثورة الصناعية قد تحولت إلى بنية ونمط يختلفان جذريا عن مدينة ما قبل الصناعة، فان المدينة الحديثة بدورها تختلف أيضا اختلافا كبيرا عن مدينة الثورة الصناعية[18].

لقد عرفت تقنيات الاتصال والمعلومات خلال السنوات الأخيرة تطورات سريعة وتأثيرات مباشرة على نمط الحياة الإنسانية سواء على الصعيد الاجتماعي أو الثقافي وكذا على المستوى الاقتصادي وذلك بسبب الثورة الرقمية التي عرفها عالمنا المعاصر لا سيما في الدول المتقدمة، هذا الأمر أفرز مجموعة من التحديات خاصة للدول النامية، تحديات ومخاطر أصبحت تمس بالأمن الاجتماعي، والانتماء الثقافي والحضاري، إضافة إلى تحدي اقتصادي يتعلق بجعل التنمية الاقتصادية مرتبطة إلى حد كبير بمدى قدرة الدول على مسايرة هذه التحولات والتحكم فيها قصد استغلال الإمكانات المتوفرة والمتجددة.

---

[16] محمد عباس إبراهيم، **مرجع السابق**، ص184.

[17] أحمد النكلاوي وكمال التابعي، **مشكلات المجتمع المصري**، دار النصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص149.

[18] علي زيد الزعبي، **المدينة والعولمة، قراءة تحليلية**، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع95، السنة24، صيف2006، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، 2006، ص21.

ففي عصر العولمة تشهد المدينة سرعة هائلة في توسعها المساحي، وقفزة كبيرة في نموها الحضري فاق مداها كل التوقعات، وتجاوزت في خطاها كل ما قد أعد لها وخطط من أجلها، وقد نتج عن النمو السريع للسكان توسع كبير في القطاعات الإسكانية والصناعية والتجارية وقطاعات الخدمات الأخرى. وقد تأثر العالم سريعا بالأحداث العالمية وبالأخص منذ أحداث 11سبتمبر وما تبعها من عمليات إرهابية وتفجيرات مستمرة في معظم المدن الغربية، وانعكس ذلك بالسلب على معظم أفراد المجتمع العربي والغربي على السواء وانحصارهم في مدنهم، ومن ثمة فإننا نعيش في عصر من الحدود الجديدة للمدن، والتي سترسم خرائط جيو– اجتماعية تتوزع فيها المدن إلى نقاط حمراء وأخرى خضراء حسب ما يسكن تلك النقاط[19].

وكرد فعل لظهور فكرة الكونية، و لما حدث من كوارث العمارة والحداثة منذ الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، فقد أدى هذا إلى بروز فرع جديد في مجالات البحث الأنثروبولوجي أطلق عليه مسمى **أنثروبولوجيا العمارة**، فقد اشتغل واهتم بما حدث من تغيرات أدت إلى تدهور العمارة، وعدم الاهتمام بالنواحي الجمالية والفنية في مكونات البناء والأخذ بالعمارة النمطية التي تعتمد أساسا على الأنماط المتكررة الوافدة من المباني الغير محلية التي لا تتلاءم مع الظروف البيئية والثقافية، ذلك لأن العمارة لا تنفصل عن السياق الثقافي والاجتماعي والتاريخي في أي مجتمع من المجتمعات، فتشييد المباني والعمارة والتخطيط المعماري للإقليم أو المجتمع المحلي يكون على درجة كبيرة من الأهمية لما له من دلالة في مجال العمارة التقليدية والحديثة ولا يمكن للباحث إغفال هذه الدلالة، فما يقوم الإنسان بتشييده لا يرتبط بالناحية الجمالية والفنية فحسب، وإنما يرتبط بالإنسان نفسه[20].

وقد كشفت المعرفة الأنتروبولوجية عن المعرفة التي في أذهان الناس عن كيفية تشييد المسكن بما يتفق وظروف البيئة الطبيعية والمناخية، فجاء تصميم المسكن تعبيرا عن هذه المعرفة من حيث طريق البناء، والمواد المستخدمة، فالقائم بالتصميم والتنفيذ هو صاحب المسكن الذي يكون لديه المعرفة بما يتلاءم مع حياته واحتياجاته، وجعلت تلك المعرفة المحلية المسكن ملائما ايكولوجيا، فالفراغات الكثيرة والفتحات داخل المسكن كشفت عن عدم المعاناة من سوء التهوية وسوء الإضاءة، وتوافر الراحة الحرارية، والإضاءة المناسبة والتهوية لكل من المسكن والشارع، والاعتماد على الطاقة المتوافقة مع البيئة، وإحاطة المسكن بسور عال يحقق الخصوصية مع عدم العزلة، وحجب الرؤيا عن الداخل، وإتاحة الحرية لأفراد المسكن، وعدم التعدي على حرية المسكن وأفراده، كما يحقق المسكن درجة عالية من المواءمة بين الطبيعة والحماية من تقلباتها، والاستفادة منها دون الإضرار بها، كما يتم اختيار اللون المناسب، ومادة البناء المواتية، ويقام السقف بمواد محلية، وكل هذا يمكن من التكيف مع البيئات الحارة والساخنة[21].

وفي دراسته حول ثقافة الواحة يرى يوسف نسيب من خلال أبحاثه حول منطقة بوسعادة، واشتغاله بقصر مدينة بوسعادة العتيق الذي يمثل إحدى العمائر التقليدية للمدن الصحراوية الجزائرية، فيرى أن العمارة التقليدية:" هي المعبرة بشكل واضح عن القيم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وعن التواصل بين الإنسان ومحيط عيشه[22]."(26)

مقاربة الأنثروبولوجيا الحضرية لانعكاس مكونات البنى اللاشعورية على نوعية الحياة وطبيعة العمارة:

وفي ضوء التشخيص الأنثروبولوجي الحضري يمكننا أن نقدم ولو قراءة أو تأويل أولي متواضع لانعكاسات مكونات الذهنية المجتمعية والفردية، وكذا الحالة السيكو– اجتماعية للجزائري ومدى انعكاس ذلك على التصميم المعماري وكذا أشكال ونوعية التفاعل داخل المجال الحضري.

- إن الموقع الجغرافي للجزائر والمغرب العربي عموما جعله منطقة جغرافية حيوية كانت ممرا للعديد من التيارات الفكرية وكذا الاجتياحات الاستعمارية منذ زمن بعيد، فعاش سكان الجزائر على مدار زمن طويل تحدي الخطر الخارجي الزاحف، وهو ما

[19] علي زيد الزعبي، **مرجع سابق**، ص 23.

[20] علية حسين، **العمارة الواحـــاتية، مدخل لدراسة الثقافة والمجتمع**، ضمن: كتاب قضايا منهجية معاصرة، كلية الآداب، قسم الاجتماع، جامعة القاهرة.ص329، ص 330.

[21] علية حسين، **مرجـــع سابق**، ص ص335– 336.

[22] Nacib Youcef**, *cultures Oasiennes,*** Publisher Belgique, 1986, p146

أثر على الجزائري في ذلك الوقت على أن يختار المكان الطبيعي بمكوناته التضاريسية الوعرة المدافعة فأقام مدن في شكل حاميات عسكرية هدفها تحقيق الحصانة والدفاع.

- لقد كان عامل الدفاع عن الذات في وجه التحديات الخارجية سببا في فرض نوع من ثبات الجزائري عند إقامة الحواضر على المورثات والمسلمات في العمارة، مما تسبب في الانغلاق وعدم الانفتاح وممارسة التجديد.
- إن الاستفادة من الدراسات والمخططات العلمية في تخطيط المدينة الجزائرية المعاصرة في جزائر الاستقلال وما بعد ذلك، لم يحصل بالقدر الكافي، فظلت إشكالات المدينة مستمرة، بل حتى مشكلات التصميم حققت الاستمرارية في الفضاءات العمرانية المستحدثة، كالعشوائية في شق المسالك بين الانقطاع والانفتاح غير المنطقي، واعوجاج الدروب، الاستيلاء على الفضاءات العامة المشتركة، الغش في المساحات والمسالك العمومية... وهذا يعكس ذهنية تبعث على تصرفات ريفية قبلية داخل المدينة.
- استمرار سلوكات الحياة الريفية وقيم البداوة دون تغيير في المجال الحضري مما ترتب عنه زيادة ظاهرة الترييف داخل المدينة، خصوصا النسيج العمراني على الضواحي.
- نزعة وجشع الحيازة ووضع اليد على العقار أفقد المعمار داخل المدينة الاهتمام والذوق الجمالي اللازم والمناسب للمظهر الذي تتبدى به المدينة لناظرها أو زائرها.
- لقد كانت الأزقة بالمدن العتيقة رغم ضيقها غير أنها منسجمة مع الكتلة المعمارية العامة، وكانت مفعمة ومليئة بالأنس تنبعث منها حيوية ساكنيها، غير أن شارع المدينة الجزائرية المعاصرة اليوم أصبح في العديد من المدن مجال مفعم بالمشكلات المادية، والمشكلات اللامادية.
- معاناة الجزائري ساكن المدينة من التمزق العاطفي من جراء فقدان الذاكرة الحضرية فيظل في معاناة الحنين لماضي سرق منه، ويعاني من فقدان فضاءات التحرك والانفتاح، مما يدخله في حالة من الشعور بفقدان هوية خاصة ومصادرة لحرية كانت كائنة، وهذا بسبب الخلط الناتج عن الهجرة العشوائية وعدم التجانس بين الساكنة.

خاتمة

إن العمارة في مظهرها انجاز مادي منظور محسوس وملموس، ولكن في جوهرها إبداع يترجم مختلجات الذات الجماعية في رؤيتها الوجودية، وطريقتها الحياتية، كما يعبر الانجاز المعماري عن الحالة النفسية للمجتمع وذوقه الفني الجمالي، وتطلعاته في الزمن المستقبلي، وهذا ما يجعل العمارة مؤشرة لخاصية هوياتية وانتماء حضاري، ونظرا لهذه الوظائف العديدة والمفيدة للعمارة في حياة الإنسان والمجتمع، كان المنظور الصائب أن يقع التجسير المناسب بين العمارة الأصيلة وما نتبناه من العمارة المعاصرة في عملية الأخذ والاقتباس والتحوير والتطوير بدافع الذوق الجمالي الأصيل، أو بدافع الحاجة والوظيفة التي يكتسيها تقسيم وتخطيط جسم المدينة، دون إهمال الخصوصية الثقافية في ظل الموجة الثقافية المعولمة.

و من الآليات الكفيلة لفهم الأبعاد المادية والجمالية والنفسية والهوياتية للعمارة بناء ووظيفة وبعدا ومؤشرا إنتمائيا وحضاريا، هو ضرورة إدخال تعديلات في الرؤى والتصورات وكذا برامج التدريس والتكوين، فلا يمكننا النظر للعمارة كنتاج مادي من خلال مخططات تقنية تقام وتجسد في هياكل خالية من الجوانب المعنوية والإنسانية، والنظر للتراث المعماري ككتلة مادية عتيقة تستهلك ميزانيات للترميم والرعاية المستمرة، أو مجالا بحثيا للأثريين، أو غالبا ما تكون ضحية للإهمال والنسيان والنهب.

وإنما المدينة العتيقة هي جزء من الذاكرة المجتمعية وشاهد مادي يسجل حضورا على مدار الزمن، ويحقق وظيفة الاستمرارية والتواصل بين الأجيال الحضرية، وقناة ناقلة للخبرات وآليات علاج مشكلات الوسط الحضري وتفاعلاته، وفي ظل هذا لا يمكننا أن نظل مستمرين في النظر للعمارة كجزء من أقسام الهندسة المعمارية فحسب وإنما العمارة ذات أبعاد متعددة فالعلاقة بين المادي والإنساني في المعمار لا ينفصلان، فالهوة بين كليات الهندسة والعلوم الاجتماعية في موضوع العمارة تستوجب تقليصها بل التجسير والتوصيل وهذا من خلال استدعاء الدور المميز للأنثروبولوجيا الحضرية و أنثروبولوجيا العمارة.